(4)

الانفعالية

القمـر يلهمك بنـوره ما دام في السماء، فإن وضعـت قدمك عليه أدركت حقيقته المظلمة، وبدت لك عتمتـه حينها ينطفئ القمر أمام عينيك، كذلك النهـر يحركك تدفـق أمواجه ما دمت على ضفّته، فـإن احتضنتك أعماقه لن تعـود.. هكذا دوما يظل الجـمال والإلهام والأمنية حيـة في نفوسنا ما دامت بعيـدة نرسمها بخيالنا.. فإن لمسناها صارت شـيئا آخر جديدا لم نكن نعرفه من قبل اسمه الواقع..

يرى البعـض في الجماعات الإسلامية تدينا مشرقـا متألقا من بعيد، يحرك عواطفه كلمات الإسلام التي تتردد على الألسنة، حين تعلو الشعارات المثيرة للانفعـالات منها القديم مثل: «إن الحكم إلا للـه»، ومنها ما استحدث مثل: «إسلامية إسلامية» «التمكين للإسلام» «الإسلام يخوض معركته ضد أعداء الإسـلام» تثير هـذه الكلـمات مشاعر من يسمعهـا، فيظن أن هـؤلاء فيهم الأمنيـة التي يرجوها، وأنهم يملكون ما يبحث عنـه، فإذا اقترب منهم -وهو مـا زال يملك عقلا يفكر به- تبـدَّد الأمل وضاعت الأمنية ولمس واقع العتمة الفكرية التي تعيشها جماعات التدين التي تجيد تحريك الانفعالات، وتفشل في تحريـك العقـول بأفكار ترسم خطـوات نحو التغيـير، لا تعرف تعددية فكريـة تتسع للاختلاف دون تخوين أو تفسيق أو اتهام للنوايا، تعيش دور الضحيـة وتُكثر من التباكي، ودعوى المظلوميـة، تتحدث عن أستاذية العالم وتنـسى أن أول طريقها ليس تنظيمًا يقتل الإبـداع، ويجمد الفكر بل إطلاق

ملكـات العقل النقدية وتنويع مصـادر معرفته، فأنَّى وجـدت الحكمة فهي ضالتـه المنشودة التي يبحث عنها، وهـذا لا مكان له داخل الصف الإخواني الذي يعمل بمدخل بيانات واحد اسمه المصادر الإخوانية.

مـن يقترب منهـم بعقله سيجدهـم يملكون أدوات العيـش تحت الأرض متماسكين برباط الخوف والشعور بالمؤامرة، وتحفيز الهمم للمواجهة، لكن لا يملكـون العيـش فوق الأرض؛ لأنهم لا يتحملـون تعددية هي ضرورة من ضرورات الدولة، ولا يتحملون الخضوع للقانون العام، فلهم قانونهم الخاص بعيدا عن قانون الدولـة، تعرف بلائحة التنظيم لا تحكم على ظاهر الإنسان بـل تحكم على الباطـن ولاءً وبراءً حبا وكرها سمعـا وطاعة، جماعة تضعفها أشـعة الشمس لأن النـور يكشف حقيقتهم جمودا وانغلاقـا وتقية، يجيدون التفتيش والمحاسبة للمخالـف، ولا يملكون محاسبة قياداتهم. يتهمون الناس جميعـا بالخطأ ولا يتهمون أنفسهم، هذا وغـيره يدركه من يقترب منهم، وهو مازال يملك عقلا يفكر به.

أما من يقترب منهم وقد أخرص عقله، وأطلق العنان لانفعالاته ومشاعره تحركه أينما شـاءت، فلـن يسمع إلا دقات طبول الحـرب المعلَنة على خصوم الإسلام، ويرى نفسه جنديا من جنود الإسلام في معركته مع المسلمين الذين أصبحـوا -في نظرهم أعداء الإسلام، وهنـا داء «التمايز بالإسلام» عن عموم المسلمين. فيتحدثون باسم الله والإسلام رغم أن الوحي انتهى بمحمد ﷺ.

تغيب المقدمـات المنطقية التي تصنع النتائـج، وتضعف أدوات التفكير من الاستقـراء والاستنباط والملاحظـة والتجريب، فتـأتي النتائج ليس من عمليـات عقلية بل حـالات انفعالية، ثـم تُركّب مقدمات لتلـك النتائج بعد

ذلـك، لتبدو منطقية، ويكون التلقين المعرفي مـن القيادة والأداء الحرفي من القواعـد الذي تتجلى دلالتـه في كلمة «التعاليم» أهم رسائـل البنا، والأكثر مدارسة وتلقينا للإخوان، فاستيعاب تلك التعاليم هو طريق الأخ إلى التوثيق، فالتصعيد لدرجات السلم التنظيمي داخل الجماعات محكوم بالولاء للجماعة والـبراء مما عداها بمـا يعمق درجات التبعية للجماعـة، فلا يستكمل شروط العضويـة إلا من تحققت فيـه التبعية الفكرية والوجدانيـة التامة للجماعة التـي تتشكّل أفكارها تبعا لانفعالاتها وميولها حبًّا وكرهًا، وبمنأى عن صوت عقـل العضو تتكون قناعاته العاطفية التي تصل به إلى تفويض كامل -تحت مسمـى الثقة- لقيـادة الجماعة المركزيـة كي تنوب عنه في التفكـير والتقييم والمراجعـة، مكتفيا العضـو أحيانا بنقل بعض انطباعاتـه وأفكاره إليها عبر القيـادة الوسيطة دون آلية واضحة للتقييم والمحاسبة من القواعد للقيادات، ثـم يكون إنهـاك القواعد بالعمل الحـركي المستمر محتقرة محـاولات التفكير بوصفهـا حالة من التنظير المؤخِّرة عـن العمل، ممتدحة دوما حركية الجماعة تحـت مسمـى العملية والتطبيق للإسـلام، وإن جاءت تلـك الحركة دائرية تنتهـي إلى حيث بدأت مُفضِية إلى تكرار الماضي على نحو ما كان من جماعة الإخـوان المسلمين في مصر بعد قرابـة نصف قرن لتصل إلى النقطة نفسها في سعيها لإقامة دولتها الإسلامية.

ويغيـب أي تفكير نقدي يقيم أداء الجماعة ويتناول أسباب قصور أداء قيادتهـا، فهي القيـادة التي ضحت على طريق الدعـوة، ومُحصت؛ لتنال تلك المكانة الروحية في قلوب أبناء الجماعة، ويحل محل الخطاب النقدي التقويمي خطـاب استسلامي للنتائج يُروج فيه عبارات التسليم بأقدار الله واختياره، وضرورة ابتـلاء الصـف المسلم؛ ليتبين الصالـح من الطالح، ويـردد الفكر

التلقيـني للجماعة عبارات من أمثال «الابتـلاء من سنن الدعوات» فتستسلم القواعد التنظيمية لنتائج لم يتدخلوا في صناعة قراراتها، ولا يملكون محاسبة صانعيها.

و يسجـن أتباع الجماعـات أنفسهم في قفص صنعه لهـم غيرهم، يفصلهم عن عالمهـم الحقيقـي، يمنعهم إسكات صـوت عقولهم أن يعيـدوا اكتشاف ما حولهـم عبر عمليات تفكير حقيقيـة أداتها العقل وليـس العاطفة، العقل الـذى حثّنا الله على إعماله تعقلا وتفكرا عشرات المرات في كتابه الكريم، «أفلا تتفكرون»، «لعلهـم يتفكرون»، فحرّفتها الجماعة -فهْما- إلى «لعلهم ينفعلـون»، ففـي الوقت الذي تتسابـق الأمم إلى تطويـر أفكارها و إطلاق حريـة التفكير، ما زالت الجماعات الإسلامية ترى التفكير شـهوة يجب أن يتعفـف عنها القواعد، فتحـث أتباعها على الانقيـاد والتسليم المطلق مرددة مقولـة: «لا أذاقـك اللـه طعم نفسـك، فإنـك إن ذقتها لم تـذق بعدها خيرا أبـدا.»[1] وكأن التفكير توجه غريـزي يتعين على الإنسان ألا ينساق خلفه،

(1) يقول أبو علي الرُّوْذباري البغدادي: كنت ذات يوم عند شيخنا الجنيد في بغداد، فجاءه كتابٌ من يوسف بن الحسن يقول فيه: لا أذاقك الله طعم نفسك فإنك إن ذقتها لم تذق بعدها خيرا أبدا. قال فجعلت أفكر في طعم النفس ما هو وجائني ما لم أرضه من الرأي، حتى سمعت بخبر بُنانٍ ـ رحمه الله تعالى ـ مع أحمد بن طولون أمير مصر، فهو الذي كان سبب قدومي إلى هنا، لأرى الشيخ وأصحبه وأنتفع به. فقدِمتُ إلى مصر، فلما لقيتُ الشيخ لقيتُ رجلاً من تلاميذ شيخنا الجنيد، يتلألأ فيه نوره، ويعمل فيه سرُّه، وعلامة الرجل من هؤلاء أن يعمل وجوده فيمن حوله أكثر مما يعمل هو بنفسه. قال: وهَمَمْتُ مرةً أن أسأل الشيخ عن خبره مع ابن طولون فقطعتني هيبته، فقلت -في نفسي-: أحتالُ بسؤاله عن كلمة يوسف بن الحسن: «لا أذاقك الله طعم نفسك..» وبينما أهيئ في نفسي كلاماً أجري فيه هذه العبارة، جاء رجل فقال للشيخ: لي على=

إن صحّ هذا في الحيوان الذى تحركه غرائزه في تبعته للقطيع بلا فكر، فلا يتسق مع طبيعة الإنسان العاقلة، فتجريد الإنسان من عمليات فكرية قوامها التقييم والمراجعة والمحاسبة والنقد والإبداع هو دعوة إلى بهيمية الإنسان بتعطيل أهم آلة فيه وهي العقل. وسياق النص الذي قامت باجتزائه المراد به شهوات النفس، وليس مواجهات العقل، فأول الطريق ألا يهرب الإنسان من عقله، ولا يكن تابعا لأفكار غيره مهما كان بريقها وأن يعيد اكتشافها من جديد، إلا أن العقل المفكر متهم دائما داخل أسوار التنظيم، مهددا دوما بالنفي مع صاحبه خارج عالم الجماعة الانفعالي، فالجماعة لا تبحث عن الأفكار بل تسعى إلى الشحنات الانفعالية التي تخلق حالة من التمازج بين أفراد الصف، والدافعية لحراك جماعي متأجج بالحماسة يبعث على التضحية، فما أشبه خطاب الجماعة الانفعالي حديثا بخطاب جماعات الخوارج منذ قرون التي وصفها الدكتور محمد أبو زهرة بأنها: «أشد الفرق الإسلامية دفاعا عن مذهبها، وحماسة لآرائها، وأشد الفرق تدينا في جملتها وأشدها تهورا واندفاعا، وهم في اندفاعهم وتهورهم يتمسكون بألفاظ قد أخذوا بظواهرها، وظنوا هذه الظواهر دينا مقدسا، لا يحيد عنه مؤمن، وقد استرعت ألبابهم كلمة «إن الحكم إلا لله»[1].

= فلانٍ مائة دينار، وقد ذهبت الوثيقة التي كُتِبَ فيها الدين، وأخشى أن ينكر إذا هو علم بضياعها فادع الله لي وله: أن يظفرني بدَيْني وأن يثبته على الحق، فقال له الشيخ: إني رجلٌ قد كبرت، وأنا أحب الحلوى، فاذهب فاشتر رطلاً منها واتني به، حتى أدعو لك! فذهب الرجل، فاشترى الحلوى، ووضعها له البائع في ورقة، فإذا هي «الوثيقة الضائعة»! وجاء إلى الشيخ فأخبره، فقال له الشيخ: خذ الحلوى فأطعمها صبيانك، لا أذاقنا الله طعم أنفسنا فيما نشتهي! ففهمها أبو علي.

(1) تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد. ص59.

فتركّـز الجماعات الدينية عـلى الجانب العاطفي بداية مـن اختيار «اسم الجماعـة» كلافتـةٍ تُعرّف بها، وتحـرّك مشاعـر أتباعها، فـأول اسم لجماعة منفصلـة باسـم العمل للإسـلام كان «الـشراة» أي الذيـن شروا أنفسهم أي باعوهـا في سبيل الله» فلا يخفى ما يحملـه أسماء الجماعات قديما وحديثا من شـحنات عاطفيـة تُحرِّك همم أتباعهـا، فالانفعال وحضـور مشاعر الغضب للـه -بزعمهم- يُشعل لهيب الحماسـة لاستهداف الخطر، ظنًّا أن في ذلك فداء للإسلام، فأصبحـت الجماعة ليست وسيلة عمل وأداة تغيير بل غاية مقدسة يجـب أن تُصان، فهي النـواة والركيزة؛ لإقامة دولة الإسـلام، واعتناق فكر قيادتهم واجتهاداتهم محـض إسلام يضحون من أجله، والموت دون أفكارها وأسرارهـا موت في سبيـل الله، هذه الحالـة التي وصفها الدكتـور محمد أبو زهـرة بالهـوس في إقدام الخوارج على الموت، قائلا: «ربمـا كان منشؤه هوسًا عنـد بعضهـم، واضطرابا في أعصابهم لا مجرد الشجاعـة. و إنهم ليشبهون في ذلـك النصارى الذين تحت حكم العرب بالأندلس إبـان ازدهارها بالحضارة العربيـة، فقد أصـاب فريقا منهم هوس جعلهم يقدمـون على أسباب الموت وراء عصبيـة جامحـة، فـأراد كل واحد منهـم أن يذهـب إلى مجلس القضاء ليسـب محمدًا ﷺ ويـموت، فتقاطروا في ذلـك أفواجًا أفواجًـا حتى تعِب الحجـاب من ردهم، وكان القضاة يصمون آذانهم، حتى لا يحكموا بالإعدام، والمسلمون مشفقون على هؤلاء المساكين، و يظنونهم من المجانين.»[1]

وهـذا لا يختلـف كثـيرا عن تفسـير الدكتور بـاروت لتلـك الحالة عند الجماعات الإسلامية المعاصرة في إقبالها على الموت بقوله: «تقوم آلية المجاهدة

(1) تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد. ص59.

الداخليـة في الخطاب الجهادي على عمليتي الإسقاط والاجتياف، وهما آليتان تميزان الشخصيـة الاضطهادية، ففي عملية الإسقاط ينبذ المجاهد ما يعكر نقاءه الروحي المتعصب كحواس الحياة والرغبات في العالم الخارجي الكافر المرتـد، في الوقـت نفسه الذي يجتاف فيه صورة نقيـة متحررة من لغو الحياة وتأثيراتها. من هنا يعيش المجاهد حالة من هوس اهتياجي ما بين النزوع إلى الحياة والنزوع إلى كراهيتها ورفضها حيث يقترح الخطاب الجهادي «إحياء مبدأ الجهاد بالنفس واليد الذي يمثل تمويها أيدلوجيا لهذا الهوس.»[1]

ولا يخفـي عمق الضرر الذى تكبده المسلمـون في تاريخهم قديما وحديثا من جماعات الخوارج على الرغم من مظاهر الإخلاص التي تجلت في هيئتهم، كـما وصفها عبدالله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حالة الزهد والتعبد التي كان عليها الخـوارج حـين لقيهم مرسـلا من قبـل عـلى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ليناقشهـم أفكارهم، فـرأى منهم جباها قرحة لطول السجـود، وأيديا كثفنات الإبل عليهم قمص مرحضة.[2]

فالمظهـر الإسلامي والحرص على الموت ليـس دليل حق ولا مؤشر صحة فهـم، وليس هـذا تفتيشا في قلوبهم، حتـى لا نقع فيما وقعـوا فيه من نصب محاكـم تفتيش لأنصارهم قبل خصومهم يقيسون بهـا درجة الاتباع والولاء، فـلا نشـكك في نوايـا الكثير مـن أنصـار الجماعـات الذين انبهـروا ببريق الشعارات، بل نناقش الأفكار، فالإخلاص -إن قلنا بوجوده أو نفيه- لا يثبت أو ينفى صحة فكرة، بل الفهم والإعمال الصحيح للعقل هو السبيل إلى ذلك،

(1) يثرب الجديدة. ص169، 170.

(2) المبرد. الكامل في اللغة والأدب. ج2. ص143. ط مكتبة مصر. القاهرة. 1916.

فالإخلاص بلا فهم هو تعصب المنحاز إلى فكرة ما صائبة كانت أو خاطئة، سلمية كانت أو قاتلة، داعية إلى وحدة وطن أو مقسِّمة له.

وأخيرا يضيع مع تلك الانفعالية محاولات التقويم والمراجعة، مُنتجِة حالة من التبرير المستمر المزيِّف للأسباب الحقيقية، الملوِّن للواقع بأوهام الجماعة، فالواقع ما تراه الجماعة بعقلها التبريري، فهناك المبرر الأمني الذى يدفع الجماعة إلى إجراءات غير مؤسسية في اتخاذ القرارات، وهناك مبرر التربص والمؤامرة الذي يفسر كل تأخر وجمود، وهناك مبرر الآلام والابتلاءات الذي يبرر السكوت عن أي تطوير أو تغيير، وهناك مبرر الفهم القاصر للإسلام الذي يفسر نبذ هذا أو تكفير ذاك في صمت، هذا التبرير الذي أدمنته الجماعة أداةً لمواجهة الأزمات، وتفسير القصور جعلها تكرر المزيد من الأخطاء، وحرمها من الاستفادة من تجاربها.

فالتبرير حيلة دفاعية يلجأ إليها الانسان لمواجهة أزمات طارئة غير متوقعة، يكون التبرير معها بمثابة تبريد نفسي ذاتي في مواجهة حرارة الأزمات الخارجية، لكن متى أصرّ عليها الانسان، فيخرج من تبرير الى تبرير، يصبح مريضًا نفسيًّا في حاجة إلى عقاقير علاجية.. فماذا عن جماعة عاشت التبرير عقودا من الزمن! مغفلة أن التبرير كان طريق الشيطان الأول للمعصية - كما قال القرآن - حين أوجد الشيطان لفعله مبررًا، ومسوغًا قائلا: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحجر: 39] لم يعترف الشيطان بذنبه، بل اتهم الله الذي اعترف بربوبيته بأنه سبب غوايته حين جعله صاحب إرادة واختيار بين الخير والشر والهداية والضلال، فالله من منظور إبليس هو الذي أضله؛ لأنه ركَّب فيه الاختيار، هكذا يخترع من يمشي في هذا الطريق

أسبابا غير الأسباب، يبدأ من نفسه و ينتهي عندها، يرى القدرة على الاختيار التي ركبهـا الله فيه عبئا يود أن يتخلص منه بالاتبـاع والانقياد، يبحث عن الأعذار و يُوجد المبررات لنفسه، فالخطأ دائما ليس منه بل من الآخر المتآمر عليه، فلا يعرف طريقا للإصلاح أو المراجعة.